

جَوْل دِيَوَانِ الشَّرِيفِ المَرْتَضَى

٣٥٥ - ٤٣٦

تحقيق وشرح الأستاذ رشيد الصفار المحامى

بقلم عبد السلام محمد هارون

الأستاذ بكلية دار العلوم

- ١ -

كنت ممن تأدب قديماً بأدب المرتضى ، وكنت أصطحب أُماليه المسماة بالغرر والدرر ، وأرجع إليها بين الفينة والأخرى ، ولا تزال هذه الأُمالي مَنى على طرف الثمام ، مرجعاً هاماً من أصول الأدب واللغة والتفسير والحديث ، وسائر ألوان الثقافة العربية الخالدة .

وكنت أقرأ شيئاً من شعره منشوراً بين شتى المراجع ، وهو نادر قليل ، ولم أكن أعلم باليوم الذى يظهر فيه ديوانه الجبار على يد عالم أديب فاضل من أديباء العراق ، هو الأستاذ رشيد الصفار . والأستاذ الصفار جدير بكل تقدير ، لأنه بذل جهداً صادقاً فى أن يرى النورَ هذا الديوان الكبير . ولم أكن أتوقع أن ينهض بهذا العبء الأدبى رجل هو فى زمرة المحامين فيستقل به ولا ينوء بحمله ، ولكنى ألفتته فيما بعد يضطلع بحمله ويظهره عملاً هو أقرب ما يكون إلى السكّال .

والشريف المرتضى هو أبو القاسم على بن أبى أحمد الحسين بن موسى بن محمد بن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين عليه السلام .

وأخوه الشاعر الشريف أبو الحسن محمد الرضى (٣٥٩ - ٤٠٦)

وأبوهما أبو أحمد الحسين الملقب بالطاهر ذى المناقب . لقبه بذلك الملك بهاء الدولة البويهى . وكان أبو أحمد زعيم الطالبين وإمامهم وزعيمهم . وهو الذى رثاه أبو العلاء المعرى بقصيدته :

أودى فليت الحادثات كفاف مال المسيف وغنبر المستاف

يقول فيها:

ويحق في رزه الحسين تغير الـ حرسين بله الدرّ في الأصداف
وقد عاصر الشريف المرتضى أربعة من الخلفاء ، وهم : المطيع وقد توفي هذا
الخليفة والمرتضى لم يتجاوز الثامنة . ثم الطائع الذي استمرت خلافته إلى سنة ٣٧١ .
ثم القادر الذي استمر فيها إلى سنة ٤٢٢ . ثم ابنه القائم وهو آخر من عاصره
المرتضى منهم .

كما عاصر من دولة البويهيين بهاء الدولة ، وأبناءه شرف الدولة ، وسلطان
الدولة ، وركن الدين جلال الدولة ، ثم أبو كاليجار بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة .
وكان المرتضى وثيق الصلة بهاء الدولة البويهى ، وكان شعره وشعر أخيه الرضى
ينشدان في مجالس بهاء الدولة . وليس بخاف أن دولة البويهيين كانت موثلاً للشعراء
والأدباء ، وبجالاتها فسيحاً لتتاجهم الفنى الذى يلقى عندهم كل إكبار وإعزاز وتقدير .
وعاصر الشريف المرتضى من العلماء الأدباء أستاذ العلامة المفيد^(١) الذى قرأ عليه
هو وأخوه الرضى الفقه والأصول ، وكذلك الشاعر ابن نباتة السعدى ، وهو
أبو نصر عبد العزيز بن عمر السعدى وقد درساً عليه اللغة ، كما تتلمذ المرتضى على
أبي عبيد الله المرزبانى فى الشعر والأدب ، وأكثر من الرواية عنه فى الأمالى .

ومن عاصره أبو إسحاق الصابى ، وهلال بن المحسن التنوخى ، وعلى بن المحسن
التنوخى ، وأبو الحسن السمسعى تلميذ أبي على الفارسى .

وكانت وفاة المرتضى لخمس بقين من ربيع الأول سنة ٣٤٦ ببغداد حيث صلى
عليه ابنه فى داره ودفن بها . ويروى أنه قال عند وفاته :

لئن كان حظى عاقى عن سعادتي فإن رجائى واثق بحليم
ولئن كنت فى زاد النقية والتقى فقيراً فقد أُمسيت ضيف كريم

(١) هو النقيه محمد بن محمد بن النعمان المكي البغدادي ، الملقب بالشيخ المفيد ، المكنى
بأبي عبد الله ، وابن المعلم ، وقد لقبه شيوخه على بن عيسى الرماني بالشيخ المفيد .

حياته العلمية :

وللمرتضى مؤلفات ومصنفات أربت على السبعين مؤلفاً في فنون شتى من فروع الثقافة الإسلامية . وقد اختلف الناس في نهج البلاغة ، أهو من جمعه ، أم من جمع أخيه الرضى ؟ (١) .

ومما يجدر ذكره أن الشريف المرتضى كان من القُومِ بأمور دار العلم في بغداد التي كانت تعد أعظم مدرسة للعلوم والآداب ، وكان في مدرسته الخاصة نحو ثلاثين ألف جزء .

وكانت له في داره مدرسة خاصة تعهد بكفاية طلابها مئونة العيش ومطالب الحياة ، إذ وقف عليها قرية من قراه تنفق مواردها على قراطيس الفقهاء والتلاميذ الذين كانت تجرى عليهم الجرايات الشهرية ، كالشيخ الطوسي الذي كان يجري عليه اتى عشر ديناراً في كل شهر .

ولا غرو في ذلك ، فقد قدر المؤرخون دخله من أملاكه الخاصة بأربعة وعشرين ألف دينار في العام ، كما ذكروا أنه كان يمتلك من القرى والضياح نحو ثمانين قرية بين بغداد وكربلاء ، ينساب فيما بينها نهرٌ خفّ بالأشجار الوارفة الظلال ، ما بين مزهرة ومشجرة ، وقد أبيحت للسابليين والعابرين ثمارها وقطوفها .

وكان المرتضى يذهب مذهب الشيعة الإمامية ، في قولهم بتوحيد الله عز وجل وعدله ، وامتناع صدور الظلم منه ، وأن الخلود في النار إنما هو للكفار خاصة ، وأن ارتكاب الكبيرة من أهل المعرفة والإقرار لا يخرج من الإسلام ، وأن الأئمة اثنا عشر ، أولهم : علي بن أبي طالب رضى الله عنه ، وآخرهم : محمد بن الحسن المهدي المنتظر ، وهم جميعاً معصومون .

وليس بصحيح أن المرتضى كان معتزلياً أو رأساً في الاعتزال ، كما يتضح عند التحقيق ، إذ لا يمكن الجمع بين كثير من الآراء التي تقال هنا وهناك .

وكان رحمه الله علماً في المناظرة متكلماً ، يسترعى إعجاب حاضري مجلسه . وقد سئل عنه أبو العلاء المعري بعد أن حضر مجلساً من مجالسه ، فأجاب :

(١) ابن خلكان ١ : ٣٣٦ .

ياسائل عنه لما جئت أسأله فإنه الرجل العارى عن العلم
لوجته لرأيت الناس في رجلٍ والدهر في ساعة والأرض في دالر
وذكر بعض الإمامية أن المرتضى أول من بسط كلام الإمامية في الفقه ،
وناظر الخصوم ، واستخرج الغوامض ، وقيد المسائل ، وفي ذلك يقول :

كان لولاي غائضاً مكرع الفقه به سحيق المدى ببحر الكلام
ومعان تشط لطفاً عن الآه همّ قربتها من الأفهام
ودقيق الحقتّه بجليل وحلال خلصته من حرام

وكان المرتضى رجلاً دين ، يضع الدين في المقام الأول . وأنت تلح في أماليه
أنه يضع مسائل التفسير والحديث في صدر كل مجلس من مجالسه ، ثم يستطرد منها
إلى الأدب والشعر واللغة ومسائل العربية والتقدم ، وبهذه الخاصة تمتاز أماليه عن
نظائرها من أمال العلماء والأدباء .

جانب من أخلاقه :

كان المرتضى سمحاً جواداً ، مبسوط اليد فائض الكرم . ويذكرون أن يهودياً
أفلساً في مجاعة شديدة ، فاحتال ليحصل على القوت ، فحضر يوماً مجلس المرتضى ،
فاستأذنه أن يقرأ عليه شيئاً من علم النجوم ، فأذن له وأمر له بمجازة تجري عليه كل
يوم ، فقرأ عليه برهة ثم أسلم على يده .

ومن مشهور القصص في ذلك ما رواه التبريزي : أن أبا الحسن علي بن أحمد
القالى^(١) كانت له نسخة من جهمرة ابن دريد غاية في الجودة ، فدعته الحاجة إلى بيعها ،
فاشترها الشريف المرتضى بستين ديناراً ، وتصفحها فوجد بها أبياتاً بخط القالى المذكور :

أنستُ بها عشرين حولاً وبعثتها لقد طالَ وَجدى بَعْدَها وَحْنِي
وما كان ظنّي أننى سأبيعها ولو خلدتني في السجون ديوني
ولكن لضعف وافتقار وصية صغارٍ عليهم تسهّلُ شئونِي

(١) نسبة إلى قالة (بالفاء) ، من بلاد خوزستان .

فقلت ولم أملك سوابق عبرة مقالة مكوى الفؤاد حزين
 وقد تخرج الحاجات يا أم مالك كرائم من ربّ بهنّ ضنين^(١)
 فرجع النسخة إليه وترك الدنانير .

وعلى حين نجد أخاه الشريف الرضى طموحاً نزاعاً إلى الخلافة منياً نفسه بها ،
 ويقول فى ذلك مخاطباً نفسه :

هذا أمير المؤمنين محمد كرمت مغارسه وطاب المولد
 أو ما كفاك بأن أمك فاطم وأبوك حيدرة وجدك أحمد
 تلقى الشريف المرتضى مصروفاً عن هذا المطمع ، مشغولاً بالعلم والدرس ،
 زاهداً فى بهرج السلطان وزيف السياسة ، ذامّاً للدنيا راغباً عنها :

وحبُّ بنى الدنيا الحياة مسيئة^(٢) بهم ، ثلثة فى النفس أعوز سدّها
 تخفّف من أزوادها ملّة طوقه فهان عليه عند ذلك فقدها
 ويقول :

قل للذى راح بعزّي واعتدى يسحب منه مطرفاً مورداً
 صنيع من يطمع أن يخلداً جمعت ما لا بد أن يبدداً
 إن لم يزل فى يومه زال غداً يا جامعاً لغيره محتشداً
 نضدت ما لا هل نضدت أملا سيان من سار يجرّ العدا
 ومن يظلّ واحداً منفردا كلاهما مفارق ما وجدنا

المرتضى الشاعر :

لم يحظ المرتضى فى الشعر بمثل شهرة أخيه الشريف الرضى ، فقد عرف الرضى
 بالشعر ، وارتضاه الأدباء ورؤوا له ، وسارت قصائده ، ونبع منها الكثير ، ولا
 كذلك الشريف المرتضى ، الذى لم يوانه الحظ فى الشهرة .

ولعل مرجع ذلك إلى كثرة أعدائه وحساده ، ولعل مرجعه أيضاً إلى أنه كان
 مكثراً ، والإكثار قد تفارقه الجودة . كما يظهر لمتصفح ديوانه ، أن الطابع العلمى

(١) البيت قديم ، وقد ضمنه شعره كما ضمنه قبله كثيرون . انظر سبط الآلى ٣ : ٨٩

والحرص على إظهار المقدرة اللغوية واتساع الأفق العلى ، كل ذلك جعل شعره في مستوى لا يستوى جمهرة الأدباء مثل ما يستويهم شعر أخيه الرضى .

كما أن سمات الحزن ، ومظاهر الشكوى والتبرم التى تسود شعره ، مما كان يتعرض له من قن العامة والطغام ، أفقدت شعره ضوئه البهجة التى يطلبها الناس فى الإنتاج الفنى .

وكذلك إجلال تلاميذه له ، وحرصهم على رواية آثاره الدينية والعلمية ؛ لما له من إمامة دينية مرموقة ، صرفهم ذلك عن أن ينشطوا لرواية شعره فأصابه بعض الخمول . وليس معنى ذلك أن يخرج المرتضى من جلة فحول الشعراء ، فهو لا جرم شاعر فحل له وزنه ومقداره .

وكان الشريف المرتضى حريصاً على إظهار براعته فى النظم واقتداره ، متوجهاً إلى إبراز سيطرته على القوافى الصعاب غير المألوفة ، فهو يقول فى قافية الثاء :

قفا بى على تلك الطلول الرثائم	مُحِينَ بنسج المعصرات المواكث
ولا تسألا عن اصطبار عهدتسا	فقد بانَ عني بانتهاك الحوادث
كأن فزادى بالنوى لعبت به	نيوب ليوث أو غالب ضابط
أجول فى الأطلال نظرة عابث	وما أنا حزناً واشتياقاً بعبث
كأنى وقد سارت مطىءً حدوهم	ألاطم موج اللجة المتلاطك

وفى قافية الخاء :

أبى يعصيبُ الغاوون ما فى عيابهم	ويلطخنى بالشر من هو ملطخ
ولو شئتُ أضحي بين دارى وبينهم	بساط بعيد للطايا وبرزخ
كأنى مقيم بين قوم أذلة	أميم رزايا بالجنادل يشدخ
ولى مهجة لم يبق إلا طولها	ترش بأنواع الموموم وتعرض

وفى قافية الزاى :

إن كنت ترغب فى الثوا	بهذه الدنيا عزيزا
فاحذر ممتى الاطماع أن	تغنى بها أو أن تحوزا
لا تُرعىها سمعاً فإن لها القمائع والأزرا	
كم آمن أضحي المطا	ح بها وقد أمسى الحزرا

أين الذين على التلا ع تبوءوا الوطنَ الحجيراً
سحبوا وراهم الجيو شَ وطالما سحبوا الخزوزا
وفي قافية الغين :

أقول لها لما التقينا على مَنى وأبرزها ذاك الحمار المصبَّغُ
وأبدت صدودا لم يكن عادة لها وقد يتجنى في الهوى المتعرجُ
لقد خان من أدّى الحال إليكم ومانَ علينا في المقال المبلغ
شغلنا وأنتم فارغون ولم يُعْجِ على ذى اشتغال دهره المتفرغ
كأنى أشكو الحب شكوى مججم فتى ضل عن وادى البلاغة ألتغ

وشعر المرتضى ذو قيمة تاريخية عظيمة ، فقد كان المرتضى على صلة برجال دهره ، وكان معنياً بتسجيل كثير من المناسبات التاريخية ، فبذلك يعد شعره سجلاً فسيحاً الجنبات ، مرآة صادقة للعصر الذى كان يحياه .
وللشريف المرتضى مجال واسع في مدح الخلفاء والوزراء والأشراف ، ولم يكن يسترفد أو يستجدى بشعره . فقد كان ذاه ثراء عريض وسعة في العيش .
وهو حين يمدح الخلفاء ويمجدهم يذكر في شعره أنه من عشيرة الخليفة ، وأن الأرومة الهاشمية جمعت بينهما ، فكانه إنما يمدح الخليفة ليفخر بنفسه . يقول في مدح الخليفة القادر :

وأنا الذى ينمى إليك ولاؤه أبدا كما ينمى إليكم مولدى
ويقول في تعزيتة له عن ولده :

نحراً بنى عم الرسول فأنتم أزكى المغارس فى الأنام وأطيبُ
لأرث النبي لكم ودار مقامة والوحي يتلى بينكم أو يكتب
والبرد فيكم والقضيب وأنتم أأدنون من أغصانه والأقرب

وأخوه الشريف الرضى كان ينهج هذا المنهج في مدح الخلفاء ، إذ يقول للخليفة القادر:

عظفاً أمير المؤمنين فإننا فى دوحة العلياء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت أبداً كلانا فى المعالى مُعرق
إلا الخلافة ميزتكم فإنى أنا عاطل منها وأنت مطوق

[للبحث بقية]